دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية

فرحات الجعبيري

دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية

فرحات الجعبيري

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة و السلام على أشرف المرسلين

نضع بين يدي القارئ الكريم هذه المحاضرة التي يسر الله المشاركة بها في ندوة الفقه الاسلامي التي انعقدت بعمان بجامعة السلطان قابوس من 22 إلى 26 شعبان سنة 1408 هـ الموافق لـ 9 . 13 أفريل 1988

وإننا لنسأل الله تعالى أن ييسر اللقاء بين علماء المسلمين حتى يتعاونوا على الاجتهاد لايجاد حلول تتماشى و مقاصد الشريعة السمحة لجميع ما يستجد من قضايا تفرضها ملابسات الحضارة العالمية

والله الموفق إلى الصواب

فرحات بن علي الجعبيري

19 رمضان المعظم 1408
5 ماي 1988

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم الى يوم الدين

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان الا على الظالمين.

أيها الاخوة المؤمنون الصادقون المخلصون، من مشارق الأرض ومغاربها نحييكم بتحية الاسلام، تحية دار السلام والاطمئنان والامان،

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ، تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم، دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) . (10 يونس 9-10)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(ربنالا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) (3 آل عمزان 8).

(ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا

عذاب النار) (2 البقرة 201)

وبعـــد.

لايسعنا من على هذا المنبر إلا أن نبتهل إلى العلي القدير ليجزل الثواب لمن فكر في انعقاد هذا المؤتمر المبارك « **مؤتمر الفقه الاسلامي** »، وسعى بكل إخلاص لتتاح هذه الفرصة لعلماء الاسلام ومسؤوليه ليتعاونوا على البر والتقوى ، وليكونوا عباد الله اخوانا يأمرون بالمعروف ويأتمرون به ، وينهون عن المنكر وينتهون عنه، حتى لا يشملهم قول الله تعالى :(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (61 الصف 2-3).

لماذا الفقه بالذات ؟ الجواب بديهي ، لأننا نعتبر أن الفقه هو الجبهة الرئيسية في معركة الغزو الفكري، ذاك لان هذا الفقه الهي المصدر ، واذا انتظمت حياة المسلمين في كبيرها وصغيرها على أساسه فانهم يستطيعـون بحول اللـــه اجتثـاث داء « **السوبرمان الغربي** » الذي ما يزال ينخر حياتهم بما لديه من زخرف وبهرج (فأما الزبد

فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض، كذلك يضرب الله الامثال (13 الرعد 17)

وقد شاءت الاقدار أن يختار لنا إخوتنا المشرفون على تنظيم هذا المؤتمر الموضوع التالـي:

دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية

نسأل الله التوفيق والسداد والعصمة من كل زلل.

أما مقدمتنا فسنحاول فيها طرح القضية كما نفهمها حسب دلالة الالفاظ التي اختيرت لهذا العنوان « مـدرسة ، حضـارة »

وأما محور الارتكاز فهو دور المدرسة الاباضية في الفقه الاسلامي وقد ارتأينا أن نمهد له بعنصرين أساسيين يتمثلان في إبراز العوامل التي عملت على نشأة هذه المدرسة ، وفي التعرف على دورها في أصول الدين ليرتبط الفرع بالاصل ، ولا يخفى على أحد أن كل مدرسة فكرية لا يتكامل نظامها إلا اذا كانت فروعها نابعة من أصولها.

وأما خاتمتنا فسنحرص فيها على أن نقف على

مدى إشعاع الفكر الإ باضي، وعلى الإشعاع الذي نرجو أن ينبثق من هذا المؤتمر حتى لا يبقى حبرا على ورق

المقدمة

تبحث في لسان العرب في مادة « درس » فتجد حقلا دلاليا واسعا، منه أن الدرس هو الطريق الخفي، ومنه درس الناقة يدرسها درسا أي راضها ، ولذلك قالوا إن أصل الدراسة الرياضة والتعهد للشىء، وقالوا درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة كأنه عانده حتى انقاد لحفظه. معنى ذلك ان الاستعمال المقصود هنا لم يكن متداولا عند العرب لكن كلمة مدرسة صارت مستعملة في العصر الحديث كما يلي : « في الفلسفة: » جماعة من الفلاسفة أو المفكرين تقول بمذهب مشترك وتنتمي الى مكان معين، وتخضع لرئيس أو رؤساء متلاحقين على نحو ما كانت عليه المدارس الفلسفية اليونانية كالمشائية والرواقية.

وتطلق أيضا على جماعة من الباحثين تعتنق مذهبا معينا أو تأخذ على الأقل بقدر من الآراء

المشتركة بين أصحابها كمدرسة البصرة ومدرسة الكوفة» (1).

فالمقصود حينئذ من المدرسة الإباضية ألا نغفل عن أن الفكر الإباضي يقوم على نظام متكامل مترابط لا يمكن أن تفهم أي جزئية من جزئياته إلا اذا ارتبطت بذلك النظام ، والتذكير بهذا أساسي لأن أغلب المجادلات بين المفكرين تحيد عن الصواب لأن كلا ينطلق من نظامه الفكري المتكامل ليغفل النظام الفكري المقابل.

فاختيار كلمة « المدرسة » مقصود لأنها بهذا المعنى أوسع من مفهوم المذهب اصطلاحا ، وليس المذهب الفقهي إلا جزء من كل ، ولذلك يحسن أن نقول : «**دور المدرسة الاباضية في الحضارة الاسلامية (الفقه خاصة)**» لان الفقه وإن كان أساسا من أسس المدرسة فهو أيضا قسم من أقسام الحضارة الاسلامية اذ

1) يوسف خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية. دار لسان العرب ، بيروت لبنان . مادة درس : 229

الحضارة تعني « جملة من مظاهر الرقي العلمي والفني والادبي التي تنتقل من جيل الى جيل في مجتمع أو مجتمعات متشابهة » (2).

وبهذا تتمثل قضيتنا في إلقاء الأضواء على جانب من جوانب مشاركة الفكر الإباضي في تنمية شجرة الحضارة الاسلامية التي تقوم على الكلمة الطيبة التي يقول فيها رب العزة : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) (14 ابراهيم 24-25).

تلك هذه القضية. فكيف نشأت المدرسة الإباضية ؟ وما هو أكلها في الأصول والفروع، خاصة في بلاد المغرب ؟

1- نشأة المدرسة الإباضية:

في مطلع القرن السابع للميلاد يشع نور الاسلام، ويكون محمد المصطفى صلى الله عليه

2) المصدر السابق ، مادة حضر : 168

وسلم رحمة للعالمين (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) (21 الانبياء 107) فأدى الأمانة وبلغ الرسالة، ولم يلتحق بالرفيق الاعلى إلا بعد أن أكمل بناء صرح الأمة الاسلامية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) (5 المائدة 3) ، أمة الإخاء والمحبة والوئام ، أمة من أسس الحياة فيها (إن اكرمكم عند الله أتقاكم) (49 الحجرات 13) و (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) (3 آل عمران 103) .

لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، وتشاء الأقدار أن يتفرق المسلمون، بعد أن قامت أحداث جسام ، الى ثلاث كتل :

– كتلة علي ابن أبي طالب.
– كتلة معاوية ابن أبي سفيان
– كتلة المحكمة : أي التي رفضت التحكيم ثم بايعت عبد الله بن وهب الراسبي في النهروان في 20 شعبان 31/37 جانفي 658.

ومعلوم أن كتلة المحكمة أبى التاريخ إلا أن

يلقبها بالخارجية على أنها تختار لنفسها الاسماء التالية : جماعة المؤمنين ، أهل حروراء ، أهل النهروان. المحكمة. (3)

والى هذه الكتلة تنتمي المدرسة الاباضية التي نسبت الى امامها السياسي عبد الله بن إباض (ت قبل 705/86) ذاك الذي يصدر رأيه عن الامام جابر بن زيد - (ت 93 / 710 - 711)

واستمرت هذه المدرسة جزء من المحكمة في ما جرى من أحداث سياسية أهمها مناصرة عبد الله بن الزبير في حركته ضد الامويين (سنة 683/63) الى أن بدا للإمامين جابر بن زيد وعبد الله بن إباض تحول في مواقف بعض رؤوس المحكمة خاصة منهم نافع بن الأزرق (ت 685/65)، وهنالك تم الانفصال سنة 684/64 بعد اجتماع صومعة جامع البصرة، وقد جاء في كتاب الجواهر ما يلي « وذلك أن المسلمين بعد قتل أبي بلال اجتمعوا بجامع البصرة وعزموا على الخروج، وفيهم عبد الله

---

3) ر. فرحات الجعبيري : البعد الحضاري للعقيدة الاباضية . الباب الأول الفصل الاول تجد جميع الاحالات.

بن اباض ونافع بن الازرق ووجوه المسلمين ، فلما جن الليل سمع عبد الله دوي القراء وترنين المؤذنين وحنين المسبحين فقال لاصحابه أعن هؤلاء أخرج معهم، فرجع وكتم أمره. » (4)

ومن هذا التاريخ انطلقت المدرسة الإباضية في بناء كيانها متبعة مسلكا من مسالك الدين عندها ألا وهو مسلك الكتمان الذي يقوم على إقامة الحلقات العلمية السرية التي ترمي الى تكوين الدعاة الذين سيقيمون أركان الإمامة الإسلامية إمامة الظهور.

ولا أراني مضطرا بأن أطيل في الثناء على الامام جابر بن زيد وما أوتي من علم وحكمة وقد كفانا مؤونة ذلك الأستاذ عمرو النامي في أطروحته عن تطور الفكر الإباضي (5) ، والأستاذ عوض خليفات في دراسته عن نشأة الحركة الإباضية (6)

4) البـــرادي : الجواهر : 155

5) عمرو خليفة النامي: الاطروحة نوقشت بكامبردج 1971 من ص 54 الى 93.

6) عوض خليفات : نشأة الحركة الا باضية . عمان 1978 : 86- 102

والاستاذ يحيى محمد بكوش في ما جمعه من فقه الامام جابر بن زيد (7) . وانتساب الإباضية اليه بات من المسلمات اذ لا تكاد تفتح نصا إباضيا إلا وتجد اسمه في المقدمة، ونكتفي بذكر ما ورد عنه في كتاب الطبقات : « منهم جابر بن زيد الأزدي رحمه الله، بحر العلوم العجاج ، وسراج التقوى ناهيك به من سراج ، أصل المذهب وأسه الذي قام عليه نظامه ، ومنار الدين ومن انتصب به أعلامه ، صاحب ابن عباس رضي الله عنه، وكان أمهر من صحبه ، وقرأ عليه ، والمقدم ممن يشار في الفتيى إليه » (8).

فواضح خاصة مما جمعه الاستاذ بكوش أنه وضع أسس المدرسة الإباضية في أهم العلوم الاسلامية من تفسير ، وحديث ، وعقيدة ، وفقه.

7) يحيى محمد بكوش : فقه الامام جابر بن زيد. دار الغرب الاسلامي 1986/1407 مجلد يضم 729 ص. ولا نشك في وجود نصوص اخرى لان قائمة المراجع لم تضم مثلا رسائل الامام جابر ، والديوان المعروض، ومسائل ابي عبيدة الخ ، عسى أن يمن الله على الأستاذ بكوش او غيره أن يتم هذا العمل

8) الدرجيني : الطبقات 205/2

ذاك هو الوجه العلمي السري للمدرسة ، أما الوجه السياسي البارز فقد كان الامام عبد الله بن إباض، ويتجلى ذلك في تحركه مع ابن الزبير سنة 683/64 وفي اجتماع البصرة ، وفي مراسلاته مع الامويين خاصة منهم عبد الملك بن مروان (65 - 86 / 685 - 705) وقد وضح فيها موقف المدرسة من الأحداث السياسية بجرأة رغم ما فيها من طعن على سياسة بني أمية وقد ميز فيها بين إمامة الهدى وامامة الضلالة ، وفي ذلك يقول : « فإن الناس انما يتبعون في الدنيا والآخرة امامين امام هدى وامام ضلالة. فامام الهدى الذي يتبع كتاب الله ويقسم بقسمة الله ويحكم بحكم الله وهم الذين قال الله عز وجل فيهم : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) (21 الانبياء 73) ، وهؤلاء هم الأئمة الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم. وأما أئمة الضلالة فهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويقسمون بغير -قسمة الله ويتبعون أهواءهم بغير سنة من الله فهؤلاء الذين قال الله عز وجل فيهم : (وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة

لا ينصرون) (28 القصص 41) وفيهم قال : (ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) (33 الاحزاب 1) وقال : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) (18 الكهف 28) » (9).

ويبرئ فيها من نافع بن الازرق وصنيعه بقوله: « إنا براء الى الله من ابن الازرق وصنيعه وأتباعه ، لقد كان حين خرج على الاسلام فيما ظهر لنا ولكنه أحدث وارتد وكفر بعد اسلامه فنبرأ الى الله منهم.» (10)

ذلك هو مسلك هذه المدرسة، بحث عن الإمامة العادلة التي تقوم على الشورى معتبرة التقوى، معرضة عن الجنس والعرق، كما قامت إمامة عبد الله بن وهب الراسبي إمام الظهور ومن جاء بعده من أمثال أبي بلال مرداس (ت61/680) إمام الشراء.

وقد احتضنت هذه المدرسة جيلا تولى امامتها في مسلك الكتمان الامام أبو عبيدة مسلم ابن أبي

---

9) البرادى : الجواهر 166

10) البرادى : الجواهر 165

كريمة التميمي (762/145) وفي ظلال مدرسته بمدينة البصرة تكون ما يعرف بحملة العلم الى المشرق ومنهم : « الربيع بن حبيب، ومنصور الرباحي ، وبشير بن المنذر النزواني، ومحمد بن المعلا الكندي، وراشد بن عمرو الحديدي» (11) والى المغرب : « أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري اليمني، وعبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتي، وإسماعيل بن دارار الغدامسي وأبو داود القبلي النفزاوي» (12). وعن طريق حملة العلم هؤلاء حمل «أهل الدعوة» أو «أهل الاستقامة» دعوتهم الى أقاصي البلاد بعيدا عن نفوذ الدولة الاموية ثم الدولة العباسية ، فأقاموا دولة الامام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي (تـ 747/130) وقائده باليمن المختار بن عوف المكنى بأبي حمزة الشاري (ت 747/130) (13) ، ودولة أبي الخطاب عبد

---

11) سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي . الانساب : ورقة 170 نقلا عن طالب هاشم : الدعوة الاباضية في المشرق العربي : ص 85.

12) الشماخي : السير 123

13) عوض خليفات نشأة الحركة الاباضية 116-126، طالب هاشم الدعوة الاباضية: 97 – 164 (تجد كل الاحالات على المصادر الاباضية.)

الاعلى المعافري (140- 144/757-761) بطرابلس (14) ثم دولة الامام عبد الرحمن بن رستم (160- 168 / 776-784) بتاهرت بالجزائر. (15)

ولندرك الدور التصحيحي الذي لعبته هذه الدول في المشرق والمغرب نكتفي بذكر شهادة الامام مالك بن أنس (93 - 179/712-795) في خطبة أبي حمزة الشاري بقوله: « خطبنا أبو حمزة خطبة حيرت المبصر وردت المرتاب » (16) لأنها كانت بيانا ايمانيا سياسيا أخلاقيا، و بما قام به من دور فعال الداعية سلمة بن سعد (قبل 723/105) في تبليغ مفهوم الإسلام الحق للامازيغ (البربر) هؤلاء الذين اضطهدهم ولاة بني أمية ثم ولاة بني العباس أيما اضطهاد. (17) و بما عرفته الامامة الرستمية من

---

14) عوض خليفات : نشأة : 147

15) بحاز ابراهيم باكير: الدولة الرستمية 160- 296/777 – 909 دراسة في الاوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية. الجزائر 1985.475صفحة.

16) عبد الله السالمي: اللمعة المرضية من أشعة الاباضية. وزارة التراث بعمان ط 2 مطابع سجل العرب 1983 . ص 6

17) صالح باجية : الاباضية بالجريد. دار بوسلامة للنشر تونس 1976/1396

رخاء وازدهار اقتصادي و ثقافي واسع (18) ثم يقوم عهد الكتمان فيتولى نظام الحلقة تنظيم أمور المدرسة الإباضية (19) في كامل بلاد المغرب. وليس معنى الكتمان السياسي جمودا حركيا و ثقافيا، بل يمكن القول بأن النضج الفكري لم يتكامل إلا في هذه المرحلة إذ عمل نظام الكتمان هذا على حفظ الإباضية من الضربات العسكرية، بما فيه من مرونة تجاه الدول الحاكمة، و ان لم تسلم هذه المدرسة من مثل هذه الضربات (20) التي كان لها بعيد الأثر في تقليص مواطن الإباضية وعددهم في بلاد المغرب، في جبل نفوسة بليبيا، وبجزيرة جربة بالبلاد التونسية، و بوادي ميزاب ووارجلان ببلاد الجزائر.

في مثل هذا المحيط من الظهور و الشراء

---

18) بحاز ابراهيم باكير : المصدر السابق

19) فرحات الجعبيري : نظام العزابة عند الاباضية. المطبعة العصرية تونس 1975.

20) فرحات الجعبيري : البعد الحضاري للعقيدة الاباضية 27/1 مرقون.

والدفاع والكتمان نشأ الفكر الإباضي و نما وتطور وتكامل ليكون رافدا من روافد الحضارة الإسلامية، تلكم الروافد التي لا يمكن أن تنضب لأنها تشترك جميعا في الاستمداد من معين واحد معين القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة، ومعين سنة الرسول المصطفى عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام.

فبماذا أسهمت هذه المدرسة في هذا الإشعاع الحضاري خاصة في علم الأصول أولا ثم في الفروع ثانيا ؟.

2) المدرسة الاباضية و أصول الدين

استقر الايمان الحق في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم و أشع على اقوالهم و أفعالهم حتى أصبح الواحد منهم كأنه يرى عرش ربه بارزا، و أهل الجنة يتنعمون و أهل النار يتعذبون، وكان القرآن الكريم يتنزل بين أيديهم فيزيدهم إيمانا على إيمانهم، و كان عليه الصلاة و السلام يملأ الدنيا، فيخلص المحتار منهم من حيرته بأقواله و أفعاله و إقراراته.

ثم تستقر الأمور ردحا من الزمن، ويغمر الاسلام بسرعة أطراف العالم بنوره و بركاته، ويأتي كل داخل بثقافته و فلسفته، و تكون الحادثة الجلى التي أفاضت الكأس فتزهق نفس مسلمة بأيد مسلمة، و تكون هذه النفس نفس الخليفة وينطلق الحوار حول إيمان مرتكب الكبيرة مواكبا للتأمل في شرعية الإمامة لتنضاف إليهما قضايا وقضايا اصطلح الناس على تسميتها بالعقيدة أو علم الكلام وما إلى ذلك من التسميات فتشمل باب الالهيات و الانسانيات و الرساليات. فكان موقف المحكمة الأول صريحا في شأن الإمامة بصفة عملية حيث بايعوا الامام عبد الله بن وهب الراسبي شورى بينهم دون نظر إلى جنسه و عرقه عندما رأوا أن الإمام علي أفضى به التحكيم الى أن يخلع أمام الملإ، و ذاك ما استقرت عليه المدرسة الإباضية فتبلور لديها فكر سياسي متكامل عبرت عنه بإمامة الظهور و الشراء و الدفاع و الكتمان، وكم تطاولت ألسنة النقاد لتعتبر أن العمل كثيرا ما جاء مخالفا للنظرية خاصة بالنسبة الى الإمامة

الرستمية، والحقيقة غير ذلك لأن الإمام عبد الرحمان بن رستم بويع لصلاحه وتقواه ولأنه ممن لاعصبية له تحميه، ثم جعلت الإمامة شورى بعده كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، و لم يؤثر عن واحد من الأئمة أنه اتخذ و ليا للعهد يبايعه الناس قبل و فاة أبيه، انما هي الأمة استأنست بهؤلاء الفرس فاستمرت على قبول امامتهم لما فيهم من صلاح عدا ما وقع من الاضطراب في آخر العهد الرستمي عندما شاخت الدولة و أوشكت على الفناء، ومع ذلك فقد بقيت الثقة في هؤلاء اذ ما أن استقر آخر الأئمة في وارجلان حتى أقبل الناس ليبايعوه عوض أن يقتلوه - كما يقع غالبا - إلا أنه رفض لادراكه أن ذلك ليس في صالح الأمة، ولو كان يتصرف تصرف الملوك لقبل مثل ذلك. (21)

أما في شأن مرتكب الكبيرة فقد اتضح موقف الإباضية من يوم اجتماع صومعة البصرة اذ اعتبروه كافرا كفر نعمة لا كفر شرك ، و شتان

21) الدرجيني : الطبقات : 105/1

بين الكفرين، بينما جنح الأزارقة إلى تكفيره كفر شرك، و نشأ فكر آخر يقول بالإرجاء و بأنه لا تضر مع الايمان معصية و بأن يرجأ الحكم فيه الى يوم القيامة وانتصرت لهذا التيار الدولة الأموية.

و لو فهم الناس أن ذاك هو موقف الاباضية لما حشروهم ضمن الخوارج و انما هي كتب الفرق أبت إلا أن تعتبر أن الإباضية يكفرون غيرهم من المسلمين، و تلك هي السياسة عندما تشن حربها النفسية على من يخالف أصحابها في المبدإ، ونسي الكل أن القول بكفر النعم عند الإباضية ينسحب على المسلمين جميعا بما فيهم الإباضية بل لعلهم يكونون معهم أشد.

و ينتج عن هذا تحميل المسلم مسؤوليته أمام الله و أمام العباد لتكون للأوامر و النواهي قيمة ، فكان ذلك مخالفا للقائلين بالجبر وهم أنصار السياسة القائمة و مخالفا للقائلين بالحرية المطلقة، فجاء الموقف وسطا من وقت مبكر مع الامام أبي عبيدة متمثلا في أن الفعل من الإنسان و أن الخلق من الله، ذاك الذي عرف في ما بعد بالكسب، وبما

أن الانسان مسؤول فلا خلف للوعد ولا للوعيد، ولا خروج لا من الجنة و لا من النار، و ذاك من عدل الله، على عكس الذين يسروا السبيل و قالوا بأن الخلف في الوعيد كرم و ذاك من فضل الله. ذاك ما يتعلق بالإنسانيات، و قد كان لهذه المبادئ أثرها الفعال في المحيط الاباضي الذي تقوم أسسه على علم الفروع بجميع فنونه.

أما عن الالهيات فقد جنح الاباضة الى التنزيه، فاعتبروا أن الصفات عين الذات، و في رأينا تبقى المعركة الكلامية لفظية أكثر منها جوهرية لان الكل يؤمن بعظمة الله و قدرته عدا أولائك الذين غالوا في التشبيه و التجسيم فهم مدسوسون على الأمة من قبل أعدائها.

تلك أبرز خصائص المدرسة الإباضية التي تبلورت من وقت مبكر ليتكامل بناؤها الفكري في ما ألفه علماء أقطاب كانت لهم مشاركة فعالة في تفنين الفروع و تحليلها و تقنينها و قد تم هذا التكامل الفكري في المغرب حسب المراحل التالية :

1ـ <u>من القرن الأول إلى القرن السادس</u> :

مرحلة النشأة التي أفضت الى النضج في مدرسة وارجلان مع الإمامين أبي يعقوب الوارجلاني في دليله، و أبي عمار في موجزه.

2ـ <u>من القرن السابع إلى القرن التاسع</u> :

مرحلة الاختصار بتقريب المطولات الى الأذهان في متون شعرية و نثرية و قد برع في ذلك قطبان : الشيخ أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي في نونيته، و الشيخ عامر الشماخي في متن الديانات.

3ـ <u>من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر</u> :

مرحلة الحواشي و الشروح و يمثلها الشيخ ابو عبد الله محمد ابن أبي ستة الذي اشتهر بالمحشي و الشيخ يوسف المصعبي.

4ـ <u>الثالث عشر و الرابع عشر</u> :

عودة إلى الانتاج الذاتي و التعمق و التحليل مع الشيخ عبد العزيز الثميني في معالمه و الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش قطب الائمة في شرحه للعقيدة.

ونكتفي بهذا القدر في شأن المد الحضاري لهذه المدرسة في هذا الفن لنحيل على ثلاث أطروحات معاصرة :

<u>الأولى</u> : للاستاذ عمرو خليفة النامي باللغة الانقليزية، و قد نوقشت بكمبردج سنة 1971.

<u>والثانية</u> : لمستشرق فرنسي مسيحي باللغة الفرنسية نوقشت بالسربون سنة 1982.

و إن أدخلت نصيبا من المقارنات المسيحية إنها تبقى منصفة للفكر الإباضي.

<u>و الثالثة</u> : أطروحتنا عن البعد الحضاري للعقيدة الإباضية، و قد نوقشت بكلية الآداب بتونس سنة 1986.

ـ من أصول الدين إلى فروعه.

3) <u>المدرسة الإباضية و الفقه</u>

ـ ملاحظة منهجية :

لم يصدر الى يومنا هذا ـ فيما نعلم ـ عمل تأليفي تحليلي متكامل في فقه المدرسة الإباضية لذلك رأينا أن نسلك في هذا البحث مسلك الوصف

و التعريف لمصادر هذا الفقه في المغرب حسب التطور الزمني، مع التنبيه الى أهمية بعض المصادر، ونرجو أن نكون قد كفينا مؤونة المصادر المشرقية في ما سيعرض من بحوث أخرى في هذا المؤتمر، و بما أن المنطلق للطرفين بصري فلا مناص من الحديث عن البذرة الأولى لهذه المدرسة و لو بشئ من السرعة.

ذهب المستشرق شاخت (22) الى أن الفقه الإباضي قد أخذ الكثير من فقه المدارس الأخرى، و ان كنا لا ننكر التفاعل بين المدارس الفقهية الاسلامية فان الأمر الذي لا مراء فيه هو أن المدرسة الإباضية متقدمة من حيث الزمن على بقية المدارس كلها اذ قد اتضحت مسالك الفقه الإباضي مع الإمام جابر بن زيد (93هـ) من القرن الأول للهجرة، و قد بقيت نصوص من تآليف الإمام وإن فقد الديوان المنسوب إليه (23)، تدل على وضوح الرؤية في الفتوى و في حل مشاكل الامة، وشهادة الصحابي عبد الله بن عباس في مقدرة

22) عن النامي : الأطروحة : 137
23) النامي : الاطروحة : 147.

الإمام جابر الفقهية تقوم أكبر دليل على ذلك اذ قال: " جابر بن زيد أعلم الناس " وقال أيضا :
" عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم جابربن زيد لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه." (24)

و من هذه الكتب نذكر :

ـ كتاب الصلاة (خ في المكتبة البارونية بجربة، وفي مكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بجربة أيضا.)

ـ وكذلك كتاب النكاح.

ـ 17 رسالة موجهة الى الدعاة الإباضية في عدة مواطن وهي مجموعة من الفتاوى متعلقة بمشاكل ذلك العصر، و قد أخرج الأستاذ النامي نصها، وتوجد نسخة منها مرقونة بدون تحقيق بروي بعمان. (المكتبة الاسلامية)

ـ ولا نغفل عن ذكر المجهود الكبير الذي قام به الاستاذ يحيى بكوش في ما جمعه بعنوان "فقه الإمام جابر بن زيد"، وقد أقامه على أحد عشر بابا عرف في الباب الأول بحياة الإمام، ثم أورد في الباب الثاني تفسير الإمام لعديد من آيات القرآن

24) الدرجيني : الطبقات 205/2.

الكريم، أما بقية الأبواب التسعة فقد جاءت في جل أبواب الفقه. (25)

- كما نذكر ترتيب الشيخ سعيد بن خلف الخروصي بعض جوابات الإمام وقد طبعته وزارة التراث بعمان بعنوان "من جوابات الامام جابر بن زيد" وقد شملت هذه الفتاوى عددا من أبواب الفقه.

هذا قليل مما أثر من عمل الامام جابر و نرجو من الله تعالى ان يفتح على الامة بالعثور على ديوانه الشهير.

<u>اما عن آثار القرن الثاني الفقهية فنذكر</u> :

- مسائل أبي عبيدة، وهي عبارة عن مجموعة من الفتاوى لكنها تضم بعض المحاورات التي تدل دلالة واضحة على اتضاح المنهج الإباضي في استنباط الاحكام، و سنورد شيئا منها بعد حين (خ بالمكتبة البارونية بجربة)
- كتاب الزكاة وهي رسالة مهمة رغم اختصارها للتعرف على أحوال الأمة، و قد قامت وزارة التراث

25) بكوش : فقه الامام جابر بن زيد.

بعمان بطبعها سنة 1982 (26 صفحة من الحجم الصغير).

- رسائل أبي عبيدة (خ بالبارونية بجربة)
- الجامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب (معروف لدى الباحثين لأنه طبع عدة طبعات).
- فتوى الربيع بن حبيب (خ بالبارونية بجربة)
- مدونة أبي غانم الخراساني، من تلاميذ أبي عبيدة (وقد صورت عن إحدى المخطوطات ثم طبعت بعنوان المدونة الصغرى، و المدونة الكبرى (وجاءت كلمة الكبرى لتشير إلى تدخل الامام امحمد اطفيش في ترتيب ابوابها).
- الديوان المعروض على علماء الاباضة.
- روايات ضمام من جمع أبي صفرة عبد الملك بن صفرة.

ولا أراني مضطرا بأن أتوسع في تعريف هذه النصوص، و إنما اكتفي بالاحالة على مقال نشره الأستاذ النامي في مجلة الدراسات السامية 1970 العدد الاول من صفحة 63 الى ص 87 بعنوان <u>"وصف لمخطوطات إباضية مكتشفة بشمال افريقيا</u>

وعلى أطروحته ص 150ـ165. (باللغة الانجليزية)

إن هذه النصوص في حاجة الآن ـ بعد ان اكتشفت حديثا و بعد أن كانت في عداد المفقود ـ الى دراسات علمية جادة لتبرز جميع مسالك المدرسة الإباضية في الاجتهاد لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، فالمدرسة الاباضية و ان استطاعت كتب التاريخ و الملل أن تطمس نصيبا من أنوارها بحشرها في زمرة اهل البدع مقابل أهل السنة، فلا يمكن للعصر الحديث أن يستمر على ذلك الدرب، و قد تقاربت الامم، و توفرت النصوص التي تثبت استقامة منهج الإباضية في العقيدة و في الفقه اذ يستشف منها المسلك الاسلامي القويم في اعتماد النص القرآني في الدرجة الاولى لاستنباط الاحكام ثم تأتي السنة النبوية الشريفة في الدرجة الثانية لتليها أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، ثم يصل اجتهاد المجتهد حسب شروط الاجتهاد.

و اذ لا نقاش بين المسلمين في أولوية القرآن في الاستدلال فلا حاجة الى بيان في ذلك، و انما هذان شاهدان من رسائل الإمام جابر في

استعمال كلمة السنة بمدلولها الاصطلاحي والاعتماد على حجيتها اذ يقول في رسالة موجهة الى عثمان بن يسار : "فأما الذي كنت تسألني عنه من المملوك هل يصلي ولم يختتن فان الختان من المسلمين سنة واجبة لا ينبغي تركها و نكره ان تتركوا لكم مملوكا غير مختون ولا يصلي حتى يختتن" (النسخة المخطوطة ص3).

كما يقول في رسالة الى طريف بن خليد :

"وأما ماذكرت من إمام قوم لم يركع في صلاة مكتوبة فاتبعه الناس و لم يركعوا فإن اولئك أحب الي أن يعيدوا ما خالفوا فيه السنة" ثم يقول : "ومن ضيع للناس أمرا مخالفا للسنة فانه لا يمكن ان يكون على صواب." (خ ص5)

اما عن حجية أقوال الصحابة فقد قال الامام أبو عبيدة : " من لم يكن له استاذ من الصحابة فليس هو على شيء من الدين، و قد من الله علينا بعبد الله بن عباس، و عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، وهم الراسخون في العلم، فعلى آثارهم اقتفينا، وبقولهم اقتدينا، و على سيرهم اعتمدنا،

وعلى مناهجهم سلكنا". (اسماعيل الجيطالي : شرح النونية خ 24/1).

كما يلح الامام ابو عبيدة الحاجا واضحا على ثقة الرواة في ما يلي : "قيل له : يرحمك الله يا أبا عبيدة أتعمل به (العلم) اذا كان إنما روي عن الصحابة. قال : ان عرفت عملت و الا فلا". (شرح النونية 24/1).

و لم يفته في مثل ما يطرح عليه من أسئلة أن يذكر بفضل الإمام جابر في توثيق المذهب الإباضي وربطه بالصحابة اذ يقول : "كل صاحب حديث ليس له امام في الفقه فهو ضال و لولا أن من الله علينا بجابر بن زيد رضي الله عنه لضللنا" (شرح النونية 24/1).

وغاية ما أريد أن أصل اليه من خلال هذه النصوص و غيرها يتمثل في إثبات استقلالية الفقه الإباضي في نشأته الأولى في تقرير هذه الأسس التي شاركته في تقريرها بأشكال مختلفة المدارس الفقهية الأخرى.

و قبل أن آتي الى التعريف بالمصادر المغربية رأيت من الصالح أن أنقل من مصدر متأخر

شروط المجتهد عند الاباضية ألا وهو "كتاب العدل و الإنصاف في أصول الفقه و الاختلاف" حتى تتكامل الصورة لدى القارئ. يقول الشيخ ابو يعقوب : "اعلم أن الذي يجوز له الرأي و الاجتهاد في النوازل من كان عارفا بوضع الأدلة مواضعها من جهة العقل و الشرع و التوقيف فيها. ويكون عالما بأصول الديانات وأصول الفقه، وعالما بأحكام الخطاب في فنون الشريعة من العموم والخصوص، و الأوامر و النواهي و المفسر و المجهول والمنصوص و النسخ، و يعلم من النحو و اللغة و ما يفهم به معاني الكلام، كلام العرب، فإنه يحتاجهما للقرآن و السنة، و الآثار عن تصحيح طرقها، وعوفينا في القرآن من ذلك لان الله تعالى تولى حفظه، و أجمعت الأمة على متنه فإن حرم المجتهد شيئا من هذه الشروط كان راوية لاعارفا، و متفقها لا فقيها، و يكون صحيح الأمانة مأمون الخيانة سليم الديانة." (26)

---

26) ابو يعقوب الوارجلاني : العدل ، مرقونة. تحقيق النامي 257/2.

مصادر الفقه الإباضي في المغرب :

القرن الثاني و الثالث :

رغم تنويه المصادر الإباضية بعلم أئمة الدولة الرستمية فانه لم يصلنا من كتاباتهم الا النزر القليل متمثلا في مجموعة من الفتاوى، و لعلهم كانوا يكتفون بما يرد عليهم مما ذكرنا من مؤلفات الائمة بالمشرق، و قد استورد الامام عبد الوهاب أحمالا منها كما تذكر كتب السير (27)

و المتأمل في هذه الفتاوى (للائمة : عبد الرحمن، و عبد الوهاب، وافلح) يدرك غزارة علمهم و مدى تأصل المنهج الإباضي في تحاليلهم للمسائل المتنوعة المعروضة.

القرن الرابع :

و معلوم أن الإباضية ضربوا ضربات مريرة في نهاية القرن الثالث : واقعة مانو (896/283)، وسقوط الدولة الرستمية (909/296) ، و كذلك في القرن الرابع عندما حاولوا استرجاع إمامة الظهور بثورة

---

27) الدرجيني : الطبقات 1/56ـ 57.

أبي القاسم الحامي (ت 968/358) و أبي خزر (ت 990/380)، و ذلك قبل أن يتحولوا الى مسلك الكتمان في القرن الخامس هـ مع الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر (ت 1049/440).

و لا شك أن تلك الأحداث شغلت علماءهم عن كثرة التأليف لانهم يكونون دائما في مقدمة الجيوش، إلا انه لم ينته القرن الرابع الا ببروز ديوان في الفقه تآزر على تأليفه سبعة من الفقهاء، عرف بديوان العزابة أوبديوان غار مجماج. ولمزيد من التعرف على المؤلفين و المؤلف يمكن الرجوع الى مؤلفنا عن نظام العزابة عند الإباضية من ص 167 الى 176 ثم من ص 260 الى 264.

وأهم ما يقال عن هذا الكتاب إنه ضرب من التأليف الجماعي الذي لم يصل الى مستوى التأليف الموسوعي لانه جاء مبوبا على مواضيع الفقه ولم يكن منظما تنظيما ألفبائيا او ما الى ذلك من المسالك المتبعة في الموسوعات.

القرن الخامس :

ولما شعر علماء الإباضية بأهمية هذا النوع من التأليف الجماعي أعادوا الكرة مرة ثانية فألفوا

ديوانا آخر أوسع من الاول يطلق عليه اسم "ديوان الأشياخ" و كثيرا ما تتداخل التسمية بين الديوانين، و ان جاء الأول في ستة أسفار فإن الثاني يضم خمسة و عشرين جزء (28) و يشمل جل أبواب الفقه.

وتعتبر هاتان الوثيقتان أبرز المصادر المعتمدة إلى جانب النصوص المشرقية المذكورة في الفقه الإباضي، و هما موجودتان في وادي ميزاب (مكتبة القطب) و في جربة (البارونية) و في نفوسة (مكتبة امحمد الباروني).

ثم تأتي المؤلفات الفردية في القرن الخامس فيكتب الشيخ ابوزكرياء يحيى الجناوني ما يلي :

- كتاب الوضع (مختصر في الاصول و الفقه).

طبع عدة طبعات أهمها الطبعة التي حققها الشيخ ابو اسحاق ابراهيم اطفيش. وهو كتاب مختصر شامل لابواب الفقه عدا النكاح و الأحكام، جاء في أسلوب أدبي مرن مع دقة علمية منهجية تمثلت في براعة نادرة في تعداد المسائل وهو بحق مفزع

---

28) الدرجيني : الطبقات 455/2، الشماخي : السير 431.

يرجع إليه في الملمات كما أراد له صاحبه بقوله : "وسألتني تلخيص أبواب من أصول الدين والمسائل الشرعيات، ليكون المجموع من ذلك مفزعا يحور اليه عند الملمات فأسعفت مراده ..." (29)

- كتاب الصوم .ط. بتحقيق سليمان موسى الجناوني و علي سالم علوش، يقع في 95 صفحة، وهو تحليل لما ورد في باب الصوم في كتاب الوضع ط.2 دار الفتح 1973/1393.

- كتاب النكاح : أعده للنشر سليمان أحمد عون الله و محمد ساسي زعرود. و قدم له و علق عليه الشيخ علي يحيى معمر يقع في 328 صفحة. د.ت

- كتاب الاحكام و قد رأيته مخطوطا في مكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بجربة.

القرن السادس :

أبو العباس أحمد بن بكر (ت 1110/504)

- كتاب أصول الأراضين و قد علمنا أن الاستاذ

---

29) ابوزكرياء يحيى الجناوني : كتاب الوضع، تحقيق الشيخ ابي اسحاق اطفيش ط. الاولى مطبعة الفجالة الجديدة د.ت : 17

كوبرلي قد أتم تحقيقه و قدمه للطبع في الجزائر (انظر ما يلي)

- كتاب أبي مسألة وهو عبارة عن مجموعة فتاوى وقد طبع طبعة حجرية صورت عدة مرات.
- كتاب الألواح خ و يبدو أنه من إملاءات الشيخ أبي العباس و قد جمعه تلاميذه بعد وفاته.

أبو عمار عبد الكافي (ت قبل 570/1174)

- كتاب الفرائض ط. طبعة حجرية.

أبو يعقوب الوارجلاني (570/1174)

- كتاب العدل و الانصاف في اصول الفقه والاختلاف. حققه الأستاذ النامي، ما يزال مرقونا، و طبعته وزارة التراث بعمان بدون تحقيق سنة 1404/1984. و هذا الشيخ يعرض منهجه في المقدمة كما يلي : "فأما معرفة الفقه و أصوله فإنها غير مضبوطة بكثرة الاختلاف في فصولها، و قلة الاتفاق على أصولها، و كثر التنازع في محصولها لأنها بنيت على اشارة و أمارة، و براهينهامقصورة على تلويحات وتنبيهات ولم تكن براهينها عقليات مطردات منعكسات بحججها، غير مقطوع بها و لا متفق عليها، فلذلك أردنا أن نشير الى

الطريقة الوسطى منها، و نستعمل الجواد، و نطرح الشواذ و نسلك مسلكا قصدا بين الغلو و التقصير ليقرب المأخذ على المقتصد و تهون الشقة على المجتهد، و الله و لي التوفيق و الفضل و الهداية والطول." (30)

أبو يعقوب يوسف بن خلفون :

- أجوبة ابن خلفون. تحقيق الأستاذ النامي ط. دار الفتح بيروت 1394/1974. 128 صفحة.

لقد أجاب الشيخ على 23 مسألة في الزواج والمعاملات و الطهارات و غيرها من المسائل الخلافية بين المذاهب الإسلامية، و تعتبر هذه الأجوبة صورة من صور الفقه المقارن يعرض فيها الشيخ رأي الإباضية بأدلته الشرعية و كذلك آراء بقية الفقهاء. و هاك ما يقوله الشيخ في خاتمة الرسالة قبل أن يتحول الى بسط بعض القواعد في أصول الفقه.

" وقد أتيت بحمد الله و عونه ـ على جواب مسائلك،

---

30) ابو يعقوب الوارجلاني : العدل. تحقيق النامي ص 32

ونقلنا ما حضرنا من أقاويل الفقهاء، و أعلمتك مواضع إجماع، و بينت لك ما اختلفوا فيه، وما حد كل فريق و دليل مذهبه، و ما اختار أصحابنا من ذلك على الأصول القويمة، والمذاهب المستقيمة..." (31)

و الكتاب بالجملة إن دل على شيء فإنما يدل على مدى سعة المدرسة الاسلامية في المحيط الإباضي في وارجلان في القرن السادس هـ. وكذلك على مدى ثقة الشيخ في متانة احتجاج سلفه في تلك المسائل، و ان كانت هذه الرسالة قد أثارت ضجة في محيط المشائخ لأنهم لم يألفوا قبلها مثل هذا المنهج الذي سيصير من أسس مؤلفات المذهب في ما بعد.

القرن السابع :

يقع الاهتمام خاصة بالإصلاح الاجتماعي في هذا القرن و يجتهد الدرجيني في التعزيف بطبقات الإباضية و يتقلص التأليف في الفقه لكن لا ينضب هذا المعين اذ يبرز الشيخ أبو نصر فتح بن نوح

31) الاجوبة ص 95

الملوشائي فينظم قصيدة تعليمية رائية في الصلاة كان لها شأن في المحيط الإباضي الى جانب نونيته في الأصول، و قد احتوت على واحد وأربعين ومائة بيت 141.

القرن الثامن :

لقد عرف هذا القرن مدا واضحا في مادة الفقه على يدي الشيخين إسماعيل الجيطالي، وعامر الشماخي.

الشيخ اسماعيل الجيطالي (1349/750)

- كتاب قناطر الخيرات، وقد طبع طبعة أولى في المطبعة البارونية في ثلاثة أجزاء في 1889/1307، و أعادت تصويره و زارة التراث بعمان1983/1403، كما حقق الأستاذ النامي قسما من الجزء الأول ويتمثل في قنطرتي العلم و الإيمان.

و بعد أن وضح المؤلف في خطبة الكتاب منهجه في تقسيم الكتاب الى سبع عشرة قنطرة، و العوامل الفكرية و الاجتماعية التي دفعته الى ان يسلك هذا المنهج يقول : "فدعاني ما ذكرت الى تأليف كتاب أشرح فيه إن شاء الله تعالى بعض شرائع الدين، وأبين فيه بعض مناهيه لعل

الله تعالى يجعله تذكرة لنفسي، ولمن نظر فيه من أبناء جنسي وغيرهم من الناس، و سميتة (كتاب قناطر الخيرات) فالله سبحانه و تعالى أسأله التوفيق في القول و العمل، و العصمة من الخطأ و الزلل". (32) و يقول الأستاذ النامي في تمهيده للقسم الذي طبعه من الكتاب ما يلي : " فهو كتاب شامل يجمع إلى بيان أسرار العبادات ومهمات مسائلها نظرات قيمة في التربية والأخلاق، و لمحات بارعة في فلسفة التشريع الإسلامي و منهاجه الذي اختطه لتنظيم الحياة والمجتمع" (33).

كما يقول : "وكان الجيطالي في عصر تحكمت فيه النظرة المذهبية الضيقة حين توزعت الدنيا سلطان المسلمين ـ فكثرت الممالك و تعدد الحكام و تفرقت الأمة ـ كان الجيطالي في ما يكتب رائدا من رواد الأخوة الإسلامية الصحيحة التي يبينها العلم الواسع و الاجتهاد الدقيق والإيمان العميق... (34) هذه الأخوة الاسلامية

32) قناطر الخيرات طبعة القاهرة مكتبة و هبة 1965/1385. ص24

33و34) قناطر الخيرات، تحقيق النامي : 15

الأصيلة التي تتشبع بها كتبه كانت نتيجة الحق الواحد الذي يسع المسلمين الصادقين مهما تناءت بهم الديار، و مهما باعدت بينهم الأصقاع، و قد أوضح الجيطالي ذلك من منهجه في التأليف فقال: "و أنا أستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم، و طغى به القلم، في كتابنا هذا و غيره من كتبنا، و إنما ألفناه من كتب شتى و أكثره من كتب قومنا (غير الاباضية) امتثالا لقوله عليه الصلاة والسلام : "اقبل الحق ممن جاءك به حبيبا كان أو بغيضا، ورد الباطل على من جاءك به حبيبا كان أو بغيضا" فاستخرجت العلم النافع من كل كتاب، و لم أهتبل بمؤلفه على خطا أو صواب، و نقلت الحق المفهوم من بين الشكوك و السموم، اذ حجة الله على الانسان فهم الحق و علمه من اي لغة سمعها أو لسان." (35)

و من القناطر الى القواعد.

35) ن.م : 16

- كتاب قواعد الاسلام

لقد طبع في مجلد واحد مع حاشية المحشي عليه (انظر ما يلي عن المحشي) في المطبعة البارونية بالقاهرة سنة 1879/1297.

و قد طبع مستقلا طبعة أخرى بتحقيق الشيخ عبد الراحمن بن عمر بكلي بالمطبعة العربية بغرداية بالجزائر في جزأين سنة 1976/1396.

و نكتفي بايراد تعريف الجيطالي لكتابه إذ يقول : "أما بعد، فانه لما كانت السعادة الأبدية منوطة بالعلم و العبادات و جب على المكلف إتقان، هذين التوأمين على التحقيق، و هما العلم بكيفية امتثال الاوامر المحتومة و الالتباس بها فعلا وامتثالا، و المعرفة بموجب اعتقاد قلب وتطهيره من الأخلاق المذمومة نطقا واعتقادا ونفيا وارتداعا، و لما كان الخبر المروي من طريق ابن عمر عنه عليه السلام متضمنا قواعد الاسلام (بني الاسلام على خمس)، و كانت السؤالات السبعة المذكورة في قوله عز و جل :

(ان ربك لبالمرصاد) (89 الفجر 14) مشتملة على جميع ما يسأل عند العبد في المعاد رأينا أن نقتصر الكلام في هذا المختصر على سبعة اركان تحتوي على جمل من الفرائض والمظالم التي يلزم بها الانسان، وكل ركن منها يشتمل على أبواب مرتبة مبانيها، و فصول مشروحة معانيها، تكون لسالكي هذا المنهج من التحف المخزونة، و الدرر المكنونة، يقل على الناظر لفظها، و يسهل على القارئ حفظها، و تكون للمسترشدين ملجأ يلجأون اليه و عصمة يعتصمون بها، و الله سبحانه هو المرجو للتوفيق والمرشد الى سواء الطريق، وهو باجابة السائلين حقيق، وهو حسبنا و نعم الوكيل ولا حول و لا قوة الا بالله العلي العظيم." (36)

والملاحظ في هذين النصين أن الجيطالي سلك مسلكا مقارنا على أوسع نطاق اذيورد في كل مسألة مختلف الوجوه مع الإحالة على أقوال العلماء المتقدمين من الإباضية بذكر أسمائهم، مع

---

36) القواعد : 2/1

تدعيم الوجوه المعتمدة بنصوصها من الكتاب والسنة.
- كتاب الحساب و قسم الفرائض .ط. البارونية ط/ حجرية
- كتاب الحج و المناسك/ خ في ما أعلم.

أبو ساكن عامر الشماخي (1389/792)

- كتاب الايضاح

طبع طبعة اولى في المطبعة البارونية في اربعة أجزاء، و أعيد طبعه مرة ثانية باشراف لجنة من الأساتذة من ليبيا 1970/1390. مطبعة الوطن بيروت.

و أعيد طبعه في وزارة التراث العماني في ثمانية اجزاء.و يقول الشماخي : " ان الكتاب جاء في إيضاح ما قدر الله من أبواب الفقه."

كما يقول : "فإنه قد دعاني الى ايضاح ما ألفت في هذا الكتاب من مسائل الصلاة ووظائفها بجميع الأسباب، و ما عليه عولت ان شاء الله وقدر سلامة و أعان على هداه مما قد اعتنيت به وألفته، من أقوال أصحابنا (الاباضية) خاصة

جمعته، بدلائل مسموعات مستندات، و قياسات مستنبطات مستخرجات، طلبي لمرضاة الله تعالى و ابتغاء ما عنده لا لشئ سواه لا. لا. وأن أكون في ذلك عونا للمتعلمين ومتبعا سبيل من سلك هذه الطريقة من صالح المؤمنين لان الله تعالى قال: (و تعاونوا على البر و التقوى و لا تعاونوا على الاثم و العدوان) (5 المائدة 20) و لأن من لم يتحكم على الاصول قلما تتحصل عنده الفصول كما قال بعضهم، انما منعهم من الوصول تضييع الاصول فلما بطلوا تعطلوا...>> (37)

ثم يقول مبينا منهجه في التمييز بين المواقف : "و لنقل في كل موضع قلت في كتابي هذا فعندي، و الله اعلم أن سبب اختلافهم او العلة كذا و كذا انه عندي في غالب الظن لا بمعنى علم مسموع قد ثبت واستن، و كذلك اذا قلت : والدليل كذا و كذا و إن العلة كذا و كذا فانما هو في الاكثر استدلال و اعتلال مني لا من صاحب

37) الايضاح 4/1

القول الذي على طريقته أسي، و صلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم و على آله وصحبه."(38)

و قد شمل الكتاب الابواب التالية : الصلاة و متعلقاتها، الزكاة و الصوم و الحج والأيمان والكفارات و الذبائح و الحقوق و البيوع والاجارات و الشركة و القسمة و الرهن و الشفعة و الهبة والوصايا.

و المهم ان كتاب الايضاح يعتبر عمدة الفقه الاساسية عند الاباضية في المشرق و المغرب الى حد أنه صار يذكر في المصادر اللاحقة "بالكتاب".

القرن التاسع :

لما تبين للشيخ ابي القاسم البرادى (تاريخ وفاته مجهول) ان المدرسة الفقهية آتت اكلها في القرن الثامن حاول أن يتم ما نقص تدقيقه في شأن السير فألف كتابه الشهير "بالجواهر المنتقاة في ما أخل به كتاب الطبقات" (اي طبقات الدرجيني)

---

38) الايضاح 5/1

عرف فيه بموقف الاباضية من الفتنة الكبرى، فوثق نصوصا من الاهمية بمكان أهملتها المراجع التاريخية الاخرى.

لكنه لم يكتف بهذا القدر و أبى الا ان يسهم في العطاء الفقهي فتناول نصين بالشرح و هما :

1) شرح كتاب العدل و الانصاف ووسمه "بالبحث الصادق و الاستكشاف عن حقائق اسرار معاني كتاب العدل و الانصاف" في اصول الفقه (خ بالمكتبة البارونية بجربة).

2) شرح كتاب الدعائم لابن النضر العماني وسماه" شفاء الحائم في شرح بعض الدعائم" في الاصول والفقه و قد توفاه الاجل في بداية العمل خ بالبارونية جربة) و الى جانب هذا أنتج رسالة في منتهى الاهمية لا يمكن أن يستغني عنها الفقيه لما جاء فيها من تعريفات لأهم مصطلحات الفقه مع مصطلحات أخرى في الاصول و غيرها وسماها رسالة الحقائق، (طبعت طبعة حجرية بالجزائر وحققها الاستاذ النامي كما يشير إلى ذلك في أطروحته ولم نطلع على التحقيق، كما حققها الاستاذ سالم العدالي و ما يزال العمل مرقونا في حاجة الى شيء من التنقيح).

القرن العاشر :

لقد شهد القرن العاشر حركية دفاعية و ذلك لما تصدت اليه الاوساط الاباضية خاصة في جربة و في طرابلس من هجومات صليبية، الا انه برز ثلة من العلماء نذكر منهم الشيخ أبا النجاة يونس التعاريتي (تاريخ و فاته مجهول) و الشيخ سعيد الجربي (تاريخ و فاته مجهول) لكن لم تصلنا منهم الا بعض الفتاوى، و للشيخ الاخير منظومة في الفقه (خ بمكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بجربة).

ويملأ هذا القرن الشيخ أبو العباس احمد الشماخي (1521/928) بكتاب السير الذي عرف فيه بنشأة المدرسة الإباضية، و تتبع اخبار مشائخ المغرب تفصيلا، فتوسع في ما جاء في طبقات الدرجيني، ثم أكمل المرحلة الى القرن العاشر، و النص وثيقة مهمة في ذكر فتاوى المشائخ، و في التعريف بمؤلفاتهم في الفقه و غيره.

كما انه اختصر مقدمة كتاب العدل والانصاف ثم شرحها و قد طبع هذا المختصر عدة طبعات في عمان، كما أوشك الاستاذ مهني التواجني على الانتهاء من تحقيق الشرح ليقدمه

أطروحة مرحلة ثالثة بالكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين بتونس.

و للشيخ الشماخي عمل قيم يساعد الفقيه على فهم نص الدعائم إذ تولى اعراب مشكله (خ بالبارونية بجربة).

القرنان الحادي عشر و الثاني عشر :

تتميز حركة التأليف في هذين القرنين بغزارة الانتاج في الشروح و الحواشي و قل من الامهات السابقة ما لم ينل نصيبه من الشرح والتحليل، وان كان بعض الناس يقللون من قيمة هذا النوع من العمل فإننا نرى أنه لا يقل أهمية عن التآليف الأصلية، ذلك أن اختيار المرء جزء من كيانه، كما أن المحشي ييسر على القارئ الفهم، ويمكنه من نصوص شتى في نفس الوقت، و قد جاءت كثير من هذه الشروح أقرب ما يكون الى التحقيق المعاصر لا ينقصها عنها إلا حسن العرض والإحالة المدققة.

ولا شك ان الفقه الاسلامي عامة و الإباضي خاصة قد استفاد كثيرا من مثل هذه الاعمال و قد تصدى لها في هذين القرنين على التوالي :

الشيخ عبد الله السدويكشي (1658/1068)

الشيخ محمد بن عمر ابن ابي ستة (1679/1088)

وقد اشتهر بين علماء الاباضية بالمحشي لكثرة حواشيه

الشيخ يوسف المصعبي (1775/1188)

الشيخ محمد بن يوسف المصعبي(1793/1207) ومن أراد الاطلاع على أسماء هذه الحواشي يمكن أن يرجع الى كتاب الشيخ علي يحيى معمر: "الاباضية في تونس".

القرن الثالث عشر :

و ما ان يحل هذا القرن حتى يتخلص الشيخ عبد العزيز الثميني (1808/1223) من مسلك الشرح ليقدم على منهج الاختصار فيعطي للمدرسة الاباضية نفسا جديدا بكتابه الذي سماه "كتاب النيل و شفاء العليل"، و قد طبع طبعة اولى

بالمطبعة البارونية ، وأعيد طبعه طبعة ثانية بتحقيق الشيخ عبد الرحمن بكلي سنة 1967/1387 بالمطبعة العربية لدار الفكر الاسلامي بالجزائر في 3 أجزاء و هاك تعريف الكتاب بقلم صاحبه. اذ يقول : "قد طال ما يتردد في خاطري ان أجمع مختصرا في الفقه جامعا، مبينا لما به الفتوى من مشهور المذهب لا مملا و لا مخلا مانعا، فان عبارة الخلف و ان قصر ذراعها اوضح من عبارة السلف و ان طال باعها" (39) ثم يقول : "فجاء بعون الله ـ و له الحمد ـ كما تشتهيه الانفس و تلذ الاعين، و تحفظه الصدور السالمة و تدرسه الالسن ... فدونك كتابا مجموعا معروضا على الأستاذ (40) مجموعا لا مقطوعا فضله عن العباد و لا ممنوعا ... سميته بالنيل رجاء من الله سبحانه و تعالى ان ينفع به كل من قرأه او حصله او سعى في شيء منه كل وقت من بعد عصره كما نفع بالنيل

39) عبد العزيز الثميني : النيل ط 2 : 1 / 3 - 4

40) يشير الى شيخه أبي زكرياء يحيى بن صالح

كثيرا و ان من غير مصره." (41)

ثم في الاخير يعلل عدم تعرضه للادلة فيقول: "و لم أتعرض فيه لعلة كل حكم او دليله ليسهل حفظه على متعاطيه وروما لاختصاره. و ينحصر في اثنين و عشرين كتابا مختوما كل منها بخاتمة حسنة حسن الله لنا بفضله و لأشياخنا و اخواننا وصالح آبائنا خواتمنا و عصمنا من الخطا و الزلل، ووفقنا في القول و العمل، انه جواد كريم رؤوف رحيم." (42)

و لما أحس انه لم يستوف جميع ابواب الفقه اردف هذا العمل بكتابين

- التكميل لبعض ما أخل به كتاب النيل، و قد حققه الشيخ محمد بن صالح الثميني و طبع بمطبعة العرب بتونس 1925/1344 و يضم 264 صفحة. ولندع الشيخ يعرف بكتابه حيث يقول : "فحصلته بعونه (الله) في زمان غير طويل منحصرا في

41) النيل 5/1

42) النيل 6/1

ثمانية كتب على نحو ما أسسته في النيل فسميته بالتكميل لبعض ما أخل به كتاب النيل،فانحصر المجموع منها في ثلاثين كتابا لايستغني فقيه عن واحد منها تعلما و خطابا، ولم أضعه لمبتدئ خال من القواعد و الاصول محروم من الموارد بعيد عن الوصول، وهو وان أحوج الناظر فيه الى إمعان النظر و معاودته فقد أغناه عند البحث عن مراجعة الكثير و مطالعته اذ قلما تجتمع مواده عند فقيه في بلادنا و لا سيما في زماننا الخالي عن الاهتمام بالعلم، و خصوصا في أيامنا، و لم اصرح فيه بتراجم الابواب روما للاختصار في الخطاب و قد جعلته بحيث يفهم كل منها من اوائل كلماته..." (43)

و الكتاب انما هو اختصار لكتاب أصول الاراضين للشيخ ابي العباس (انظر اعلاه) و كما يدل عليه عنوان الاصل فهو يبحث في كيفية تصرف المسلمين في الاراضي ملكا و شركة و ما الى ذلك.

43) التكميل : 4

- الورد البسام في رياض الاحكام

و قد حققه و أشرف على طبعه حفيد المؤلف الشيخ محمد بن صالح الثميني بالمطبعة التونسية بتونس 1940/1359 في 321 صفحة.

لقد استفاد المؤلف استفادة كبيرة من قسم الاحكام من ديوان غار مجماج (انظر اعلاه) ويثبت المحقق أنه تميز عن الاصل بحسن التبويب مع اضافة بعض الابواب في آخره. و قد جاء عنوان الكتاب معبرا عن فحواه إذ يتعلق بكل ما يهم القاضي و القضاء عند الاباضية.

و يذكر محقق كتاب النيل كتبا أخرى للشيخ عبد العزيز الثميني وهي :

- التاج في حقوق الأزواج : كتاب جامع للنظام العائلي و الحقوق الزوجية.
- التاج في التوحيد و الفقه. من أجل كتبه المعتمدة في عشر مجلدات. اختصر فيه كتاب : "منهج الطالبين و بلاغ الراغبين" للشيخ خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي.

- المصباح. مختصر كتابي أبي مسألة، و الالواح لأبي العباس احمد بن أبي بكر الفرسطائي (انظر اعلاه)
- الاسرار النورانية شرح الرائية في الصلاة وهو اختصار لشرح الشيخ عمرو التلاتي (1773/1187)

فواضح من خلال هذه المصنفات ان الشيخ الثميني حرص على اعادة بناء الفقه الاباضي على منهج الاختصار حتى يخفف على الباحث مؤونة العناء للحصول على مبتغاه ذلك بعد ان توسع الجيل الذي قبله في الحواشي و الشروح. (44)

القرن الرابع عشر :

يزدان بالشيخ امحمد بن يوسف اطفيش (1914/1332)، و قد اعتبر قطب الائمة عند الاباضية على الاطلاق، ذلك لانه ألم بالتأليف في جميع العلوم الاسلامية في عصره، وحرص على ان

44) و من اراد التوسع في معرفة منهج المؤلف فليرجع الى تقديم المحقق للتكميل و الورد الباسم.

يبرز فيها أصالة المدرسة الاباضية، و ان لم يطاوعه فن التاريخ كما طاوعته بقية الفنون، وتهمنا في هذا البحث مؤلفاته الاساسية في الفقه

ـ كتاب شرح النيل و قد طبع طبعة اولى بتحقيق الشيخ ابى اسحاق ابراهيم اطفيش في عشرة أجزاء بالقاهرة 1305ـ1348 / 1887ـ1929

وطبع طبعة ثانية بدار الفتح ببيروت 1392/1972 في 17 مجلدا و قد قدم له الاستاذ علي علي منصور رئيس المحكمة العليا و رئيس اللجنة العليا لتطبيق احكام الشريعة الاسلامية في الجمهورية العربية الليبية.

وقد صورت عن هذه الطبعة طبعات اخرى وقد انتشر الكتاب بين ايدي الناس بعد ان كان في عداد المفقود.

ولا شك ان جرأة الشيخ على تتبع النيل بالشرح المستوفى تدل على المام واسع بالفقه الإباضي خاصة و بأقوال المدارس الفقهية عامة.

ومما يثبت حسن إلمامه بالفقه الاباضي تمكنه من ارجاع كل ابواب الكتاب الى الامهات التي

اختصرت منها و في ذلك يقول عند شرحه لقول المصنف (و ينحصر في اثنين و عشرين بابا)... التسعة الاولى و الحادي عشر اصولها للشيخ عامر، الا<<باب الحمالة و باب الحوالة وباب الوكالة على البيع والشراء>> فمن الديوان، و كذا الثاني عشر و الثالث عشر و الرابع عشر و الخامس عشر و السادس عشر، فان أصولهن للشيخ عامر الا باب اللقطة فليس له، و الا قوله : "باب ما قيل في مال موحد متروك" الى "كتاب الوصايا" فان ذلك من الديوان الا قليلا، ووصايا الشيخ عامر انتهت في اخر التدبير، و بقية الوصايا من الديوان، و اما العاشر و السابع عشر فللشيخ يحيى النفوسي، و اما الثامن عشر و الثاني والعشرون فمن جمع الجوامع، واما الحادي والعشرون فللشيخ إسماعيل." (45)

. و الكتاب في الجملة موسوعة فقهية اباضية إسلامية اذ لم يتخلف الشيخ عن مقارنة آراء

45) شرح النيل ط2 : 40/1

الاباضية بأقوال بقية المذاهب خاصة في مواطن الاختلاف.

والى جانب كتاب شرح كتاب النيل فقد تولى شرح نصوص اخرى نكتفي بذكر البعض منها :

- حاشية على كتاب ابي مسألة او الجامع لابي العباس احمد بن بكر (انظر اعلاه) خ (مكتبة القطب بن يسجن)
- شرح كتاب الدعائم لابن النضر العماني ط. في جزأين الجزائر 1908/1326
- شرح رسالة الوضع و الحاشية ط. القاهرة، البارونية 338.1888/1306 صفحة.
- حي على الفلاح شرح كتاب الصلاة من كتاب الايضاح لعامر الشماخي (خ مكتبة القطب)
- مختصر شرح النيل خ. في مجلد واحد (خ مكتبة القطب)
- تفقيه الغامر بترتيب لقط موسي بن عامر. ط. حجرية بالجزائر 1901/1319. 448 صفحة.
- شامل الاصل و الفرع و قف عند صلاة السفر

(و لم ينته منه). ط. بالقاهرة المطبعة السلفية 1929/1348 في جزأين (1: 287 صفحة و 2: 264 صفحة.

وأعادت وزارة التراث بعمان تصويره سنة 1984/1404 و يعتبر المؤلف انه وضعه للمبتدئين اذ يقول : "فهذا كتاب و ضعته للمبتدئ يشمل اصولا و فروعا و ليس فضله عن المتوسط والمتناهي ممنوعا".(46)

ورغم انه وضع للمبتدئين فلم يكن خاليا من التوسع والتعليل و التحليل مع اتباع المنهج المقارن بعرض أقوال المذاهب المشهورة.

و للشيخ عدد كبير من الاجوبة و الرسائل المختصرة في الفقه الا انها ترجع كلها الى الامهات.

وقبل ان اختم ما يتعلق بأهم مؤلفات القطب (47) أرى من المستحسن أن أقف قليلا عند كتابه "الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص".

---

46) شامل الاصل والفرع : ط. عمان 2/1

47) و لمزيد الاطلاع على مؤلفات الشيخ يمكن الرجوع الى فهرس مكتبة القطب ابن يسجن وادي ميزاب. و قد استفاد منها الاب كوبرلي و رتبها في المقدمة التي وضعها لتحقيق الرسالة الشافية في تواريخ اهل وادي ميزاب 1973 باللغة الفرنسية

لقد طبع طبعة اولى بتحقيق الشيخ ابي اسحاق ابراهيم اطفيش بالقاهرة ثم طبع طبعة ثانية قدم لها الاستاذ ابراهيم طلاي بمطبعة البعث بقسنطينة 1980/1400. كما اعيد طبعه بالمطابع العالمية بعمان بدون تاريخ مصورا عن الطبعة الاولى و هذا تعريف المؤلف لكتابه : "و بعد هذا كتاب يجمع القواعد و الحاشية (48) مختصرا سميته بالذهب الخالص ارجو به الموت على الاسلام و التسهيل يوم اكون محتضرا، سميته بـ (الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص) وفيه زوائد كثيرة تكاد تكون ثلثا، لا تكاد تجد مسألة امر المحشي بتحريرها الا حررتها و أثبتها. ومهما رأيت من مخالفة فعن عمد اتيتها والبحث في الايات أحيله على هيميان الزاد و غيره من تفاسيري وكثيرا ما

48) يشير الى قواعد الاسلام للشيخ اسماعيل الجيطالي وحاشية الشيخ ابي ستة عليه.

أصحح غير ما صحح في الاثر، والفضل لابي ستة لانه الذي أسس و كفاني فتفرغت لبعض ما لم يذكره و (التاء) علامة على قلت و (الميم) على مالك (و الشين) على الشافعي و(الحاء) على ابي حنيفة و ما لم انسبه لهؤلاء و لم أحكه بقيل فهو مذهبنا معشر الاباضية وهو المراد حيث كتبت لفظة (نا) و لو كان لنا مذهب اخر غيره..."

و فعلا فقد التزم الشيخ بكل دقة المنهج الذي رسمه لنفسه فجاء الكتاب على اختصاره موسوعة فقهية شاملة لاراء الفقهاء بأدلتها غالبا ليتبين القارئ، من خلال هذا التعايش بين الاراء : "ان اختلاف المذاهب رحمة، وانه في نفس الوقت ثروة علمية لاشرارة فتنة ومدعاة انغلاق و تعصب" كما قال الاستاذ ابراهيم طلاي في التقديم.

و بعد هذا ما يزال المدد منسابا في العصر الحديث و الحمد لله و لنترك ذلك الى دراسة

لاحقة ان شاء الله.

و لا يفوتني قبل ان اصل الى بعض الاستنتاجات في شأن اسهام المدرسة الاباضية في باب الفقه ان أذكر ما خلفه هؤلاء العلماء من فتاوى مبثوثة هنا و هناك او مجموعة مخطوطة ومطبوعة مما يحتاج في حد ذاته الى اعمال طويلة تنير السبيل امام الباحث الذي يريد ان يتعرف على احوال المجتمع الاباضي في تعايشه الداخلي وفي تفاعله مع المدارس الاسلامية الاخرى في احوال الشدة و الرخاء.

ولا أراني مضطرا بأن أعتذر لدى الباحثين لأذكر بأن هذه القائمة المعروضة انما هي قائمة أولية ما تزال في حاجة الى مراجعات لتنضاف اليها اسماء اخرى منها ما ترك عن قصد حتى لا يطول البحث اكثر مما طال، و منها ما مايزال مغمورا هنا و هناك.

استنتاجات تتعلق بالفقه

لقد بات من الواضح اننا تناولنا القضية من الجانب الحضاري لذلك ستأتي استنتاجاتنا من هذا القبيل، معنى ذلك اننا لا يمكن ان نعرض في هذه الاستنتاجات بعض الخصائص الفقهية الدقيقة لان ذلك من مشمولات أعمال اخرى.

1) لقد اتضح ان المدرسة الاباضية سلكت من يومها الاول مسلك معاذ بن جبل فاعتبرت مصادر الشريعة الاساسية متمثلة في الكتاب والسنة والرأي.

و أريد هنا أن ألح على السنة و الرأي :

أ ـ اما في شأن الاعتماد على السنة بمفهومها الاصطلاحي فقد أرسيت قواعده مع الائمة الثلاثة الاول بصورة واضحة و صريحة (جابر بن زيد، ابو عبيدة، الربيع) و هذا فيه رد قاطع على من يختلط عليهم الامر و يضمون هذه المدرسة الى صفوف المبتدعة، و ان بدأ يزول هذا الامر في الدراسات الحديثة الا انه تحول الى صيغة معتدلة، لكنها تبقى غير منصفة على الوجه المطلوب اذ تتمثل في اعتبار المذهب الاباضي اقرب المذاهب

الى أهل السنة (49) فلماذا هذا التصنيف بعد ان ثبت أن المذهب الاباضي أسبق المذاهب الى اعتماد السنة (50) اعتمادا كليا في تأصيل الشريعة ؟ والذي نراه هو أن كل المذاهب الاسلامية تلتقي في الاعتماد على السنة مع نسب متفاوتة فحتى أهل العدل و التوحيد الذين جنحوا في استعمال العقل لم تخل مدرستهم من الاعتماد على السنة و ان لم يكن لهم فقه مستقل لكن فكرهم أثر أثرا واضحا في المدارس الاسلامية.

ب ـ أما في شأن الاعتماد على الرأي لاستنباط الاحكام فقد جاء الموقف معتدلا لا تطرف فيه، وقد تجلى ذلك من خلال ما ذكرناه من أقوال الامام أبي عبيدة في شأن ضرورة استيعاب الائمة للحديث الشريف، و لم يمنعهم هذا من تجاوز ظاهر النص الى الغوص في مكنوناته معتمدين على باب المجاز في اللغة.

---

49) ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ط. دار الفكر العربي د.ت 91/1
50) علي يحيى معمر : الاباضية بين الفرق الاسلامية.

2ـ لا يمكن ان ينازع منازع في الاسبقية التاريخية لهذه المدرسة الفقهية اذ جذورها ضاربة في اعماق القرن الاول لهجرة الرسول عليه السلام.

3ـ أثر العقيدة الاباضية واضح في الفقه ويتمثل في اعتبار العمل لا يتجزأ من الايمان، وفي اعتقاد الخلود لمن يموت مصرا على الكبائر، ويتجلى هذا في كثرة التحري، مما جعل الناس يتهمونهم بالتشدد و المغالاة، و الفرق واضح بين الذي يجتهد في تحري الحقيقة داخل اطار النص وبين الذي يخرج عن النص فيحمله ما لا يمكن ان يتحمل.لكن كل من اتهمهم بالغلو وقف معترفا بأمانتهم في وراية الحديث بحجة أن من يعتقد الخلود لا يمكن ان يتساهل في الكذب في رواية الحديث.

4ـ جاء هذا الفقه متحررا من قيود السلطة ذلك ان هؤلاء الفقهاء لم يخدموا ركاب دولة معينة و انما كتبوا لانفسهم و لبيئتهم مخلصين جهودهم لله تعالى فعبروا عن ارائهم بوضوح وصراحة في القضايا الفقهية الشائكة.

5. سلك فقهاء الاباضية مسلك التحرر تجاه المذاهب الفقهية الاخرى و يتجلى هذا بوضوح في تجربتهم الرستمية، ذلك ان جامع تيهرت كان مفتوحا لكل هذه المدارس تبث فيه آراءها بكل حرية كما يشير الى ذلك ابن الصغير المالكي في رسالته عن الدولة الرستمية.

6. ثقة هؤلاء الفقهاء في ما عندهم، ويتجلى هذا في المنهج المقارن الذي تأصل بشيء من الصعوبة في المدرسة الاباضية المغربية في القرن السادس ليصير مسلكا أساسيا من مسالك هذا الفقه و يتمثل هذا في عرض اراء المذاهب الاخرى جنبا الى جنب مع الرأي الاباضي، اذ لم يصل ذلك الى مستوى المنهج المقارن بأتم معنى الكلمة المتمثل في عدم الاكتفاء بالعرض و انما يتجاوز ذلك الى توضيح مدى تأثير المؤثر في المتأثر وكيفية قيام هذا التفاعل، و نحن نرى ان المدارس الفقهية الان في حاجة الى ان تحرص على ان تسلك مثل هذه المسالك التي تثبت مدى التقارب بين هذه المذاهب في تفاعلها مع الاحداث.

7. واضح من خلال هذا العرض أن هذه المدرسة الفقهية تكامل بناؤها عبر العصور فدونت نصوصها من وقت مبكر بأدلتها و حججها و ما ان استقام امرها في المغرب حتى جمعت ذلك في دواوين نثرية مستقلة،كانت مادتها منطلقا للاجيال اللاحقة التي ادركت مستوى التقعيد و التنظير في القرن الثامن للهجرة، لتعود الاجيال اللاحقة بعد ذلك الى الشرح و التحليل، ثم لتؤلف المختصرات الدقيقة في هذا الفن، ثم ليعودالشرح ثانية، و في كل حين تنضاف حقائق من واقع الأمة في المجتمع المغربي.

ولا يفوتنا أن نلاحظ استمرارية التعايش مع الجناح الثاني لهذه المدرسة الا وهو جناح المشرق بعمان اذ لا يمكن ان يصدر كتاب هنا الا ليكون له اثر هناك رغم بعد الديار بل لم تطرأ مشكلة في المغرب الا وكان المشرق مشاركا مشاركة فعالة في التغلب عليها وحلها بأحسن السبل و العكس بالعكس، والمراسلات الفقهية لم تنقطع بين الطرفين منذ ان وصل الاباضية الى المغرب إلى يومنا هذا.

8 - ان المدرسة الإباضية الفقهية ما تزال في حاجة إلى الباحثين ـ إباضية وغير اباضية ـ ليستكنهوا كثيرا من حقائقها، و نرجو من اعمال هذه الندوة ان تحفز الهمم لنخطو الخطوات الأولى في جمع هذا التراث الضخم و في التعريف به ليكون رافدا من روافد التشريع الاسلامي في العصر الحديث هذا التشريع الذي لن تقوم للامة الاسلامية قائمة الا به.

الخاتمة

ان غاية ما يمكن ان يقال بعد ان حرصنا على التعرف على شيء من الدور الحضاري الذى لعبته المدرسة الاباضية منذ نشأتها الاولى خاصة في بابي العقيدة و الفقه يتمثل في الملاحظات العملية التالية :

1) لقد عرف عالمنا الاسلامي صحوة واضحة المعالم من أقصاه الى أدناه، فعلى علماء هذه الامة ان يعملوا بحرص واخلاص على ترشيد هذه الصحوة و توجيهها الوجهة السليمة التي ترضي رب العالمين لتتمكن من مجابهة أعداء الاسلام الذين يكيدون لها كيدا فضيعا، و لتصل بالامة الى شاطئ السلام بسلام.

2) و ليكن جانب من هذا الترشيد قائما على العمل على التقريب بين المذاهب الفقهية على ان تعامل هذه المذاهب اثناء البحث على قدم المساواة في ما بينها ما دامت كلها تستقي من نفس المعين.

3) و يتأتى هذا في رأينا بتوفير موسوعة لكل

مذهب على حدة يشرف عليها اهل ذلك المذهب على ان تعرض موادها عرضا الفبائيا يتبع في كل مصطلح منها عرض تطوره التاريخي في جميع مصادر المذهب.

4) ولتكن بعد ذلك هذه الموسوعات مادة أساسية للتشريع الإسلامي في اطراف العالم الإسلامي بعد ان تخزن بوسائل الآلية الحديثة وبذلك تتمكن المجامع العلمية من صياغة هذه المادة المتكاملة في نصوص تساعد على حل كثير من مشاكل العصر.

5) و في الختام أملنا في الله تعالى ان يجمع شمل هذه الامة الاسلامية و أن يوحد صفها و أن يعيد للمسلمين مجدهم ذلك المجد الذي تأتى لهم عندما أدرك سلفهم ألا مدد أفضل من المدد الرباني لتنظيم جميع شؤون حياتهم.(يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم) (47 محمد 7) ولا نصر الا بنصر دين الله، ولا نصر لدين الله الا بالعمل به.

ولا صلاح للامة الإسلامية الا إذا أدرك كل المنتمين اليها وبدون استثناء ان الحاكمية لله، وبالتالي لايمكن بحال ان يكون أي تشريع

فيهاخاليا من حق الله.

و السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فرحات بن علي الجعبيري
أستاذ بكلية الاداب بالقيروان
الجمهورية التونسية

ملاحظة

من أراد التعرف على تراجم علماء الإباضية المذكورين في البحث يمكن ان يرجع إلى أطروحتنا عن البعدالحضاري للعقيدة الإباضية.

الإيداع القانوني
8 / 88

تم طبع هذا الكتاب
بدار الجويني للنشر

تحت عدد 3705
8 / 88



دار الجويني للنشر
14 نهج القاهرة 1001 تونس
الهاتف : 248.794 346.232